خطأ العقلاء

من مقالات الاستاذ الامام في جريدة الوقائع المصرية وفيها تعريض بالعرابيين كتبها في العدد ١٠٧٩ الصادر في ٥ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ — ٤ أبريل سنة ١٨٨١

ان كثيرا من ذوي القرائح الجيدة اذا أكثروا من دراسة الفنون الادبية ومطالعة أخبار الامم وأحوالهم الماضرة تتولد في عقولهم أفكار جليلة وتنبعث في نفوسهم هم رفيعة تندفع الى قول الحق وطلب الغاية التي ينبغي ان يكون العالم عليها ولكونهم اكتسبوا هذه الافكار وحصلوا تلك الهمم من الكتب والاخبار ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك تراهم يظنون أن وصول غيرهم الى الحد الذي وصلوا اليه وسير العالم بأسره أو الامة التي هم فيها بتمامها على مقتضى ماعلموه هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم والالفاظ من أسماعهم فيطلبون من الناس طلباً حاثا ان يكونوا على مشاربهم ويرغبون ان يكون نظام الامة وناموسها العام على طبق أفكارهم وان كانت الامة عدة ملايين وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين ويظنون ان أفكارهم العالية اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب والدفاتر ووضعت أصولا وقواعد لسير الامة بتمامها ينقلب بها حال الامة من أسفل درك في الشقاء الى أعلى درج في السعادة وتتبدل العادات وتتحول الاخلاق وليس بين غاية النقص والكمال الا ان ينادى على الناس باتباع آرائهم

تلك ظنونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات وإنهم وان كانوا أصابوا طرفاً من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة وانبعاث الغيرة لكنهم أخطأوا خطأ عظيما من حيث انهم لم يقارنوا بين ماحصلوه وبين طبيعة الامة التي يريدون ارشادها ولم يختبروا قابلية الاذهان واستعدادات الطباع للانقياد الى نصائحهم واقتفاء آثارها ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ودققوا النظر في سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التي اقتضتها حالة وجوده بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة في

الكتب وتبينوا كيفية انتقال الامم من بداياتها الى نهاياتها لعلموا ان الامم في أحوالها العمومية كالاشخاص في أحوالها الخصوصية بل ان الاحوال العمومية هي عبارة عن مجموع الاحوال الخصوصية وليست الامة مثلا الا مجموع أفرادها وليس حال الهيئة المركبة من تلك الافراد الا مجموع أحوال هاته الافراد

فعلى من يريد كمال امة بتمامها ان يقيس ذلك بكمال كل فرد منها ويسلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد. هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع ان يودع في عقل الطفل الرضيع أو الصبي قبل رشده وقبل ان يتعلم شيئا من مبادي العلوم تلك الافكار العالية التي نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات؟ كلا بل لو أراد ان يجعل شخصا من الاشخاص على مثل فكره احتاج الى ان يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ثم مبادي الفنون السهلة التحصيل ثم يتدرج به شيئا فشيئا حتى ينتهي بعد سنين عديدة الى بعض مطلوبه ثم هو في خلال ذلك محتاج الى ان يحصر أعماله ويقيدها بقيود من الترغيب والترهيب وان يراقب حركاته في أعماله خوفا من اختلاطه بفاسدي الاخلاق والافكار أو المائلين الى الكسالة والبطالة أو ورود موارد الشهوات ونحو ذلك من الملاحظات التي لا بد منها فان اختل شيء من الترتيب في التعليم بأن قدم الاصعب على الاسهل مثلا أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله اختلت التربية وذهبت الاتعاب سدى واستحال صيرورة حال ذلك الشخص مماثلة لحالة مرشده

ولو انه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو في سن الرحولية هل يمكنه ان يبدلها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه كلا ان الذي تمكن في العقل أزمانا لا يفارقه الا في أزمان فلا بد لصاحب الفكر ان يجتهد اولا في ازالة الشبه التي تمسك بها ذلك الشخص في اعتقاداته وذلك لا يكون في آن واحد ولا بعبارة واحدة ولكن بعبارات مختلفة في التقريب بعضها سهل المأخذ قريب المنال والبعض أرقى منه وبعضها خطابي والآخر برهاني وما شابه ذلك فان لم يتخذ تلك الوسائل في ارشاده امتنع عليه مقصوده بل ربما جرّه نصحه الى الضرر بنفسه. تلك هي الحالة المشهودة التي لا ينكرها أحد ثم ان نجاحه في تغيير فكر واحد

مع كل هذا الاجتهاد موقوف على ان صاحب ذلك الفكر الفاسد لا يباشر ولا يخالط في خلال تعلمه الا مرشده صاحب الفكر السليم فان كان يخالط غيره ممن يؤيد فكره الاول طال الزمن وربما لم ينجع فيه الارشاد وأظن (أن) هذا يعترف به كل من مارس الاخلاق والعادات

ان كان هذا حال شخص واحد اذا أردنا اصلاح شأنه في صغره أو كبره مع انه يسهل ضبط أعماله وأحواله والوقوف على كنه أوصافه ودرجات تقدمه في المقصود وتأخره فيه فما ظنك بحال أمة من الامم تختلف عناصرها وتتباين شعوبها فمن الخطأ بل من الجهالة ان تكلف الامة بالسير على مالا تعرف له حقيقة أو يطلب منها ماهو بعيد عن مداركها بالكلية كما انه لا يليق ان يطلب من الشخص الواحد مالا يعقله أو مالا يجد اليه سبيلا

وانما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة في عقول أفرادها ثم يطلب بعض تحسينات فيها لا تبعد منها بالمرة فاذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج حتى لا يمضي زمن طويل الا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة الى ماهو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون أما اذا وضع لهم من الحدود مالم يصلوا الى كنهه أو كلفوا من العمل مالم يعهدوه أو خولوا من السلطة مالم يعودوه رأيتهم يتخبطون في السير لخفاء المقصود عنهم وضلال الرأي فيما لم يكن بمر على خواطرهم فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى لكن الى ما هو أتعس منها بحكم الاستعداد القاضي عليهم بذلك

مثلا اننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا واعتدال أحكامها والحرية التامة في الانتخابات العمومية في رؤساء جمهوريتها وأعضاء نوابها ومجالسها وما شاكل ذلك ونعرف مقدار السعادة التي نالها الاهالي من تلك الحالة ونعلم ان هذه السعادة انما أتت لهم من كون أفراد الامة هم الحاكمين في مصالحهم بأنفسهم لانهم أرباب الانتخاب وانما رؤساء الجمهوريات وأعضاء المجالس نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لانفسهم وتتشوق النفوس الحرة ان تكون على مثل هذه الحالة الجليلة لكننا لا نستحسن ان تكون

تلك الحالة بعينها لافغانستان مثلا حال كونها على ما نعهد من الخشونة فانه لو فوض أمر المصالح الى رأي الاهالي لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لايرى سواها فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلا لرأيت كل شخص ينتخب صاحباً له أونسيباً أوقريباً فربما ينتخبون آلافاً مؤلفة ثم لاينتهي الانتخاب الى المرغوب أصلا لوقوف كل واحد عند انتخابه الاول ولو وكل اليهم انتخاب رئيس للحكومة لانتخبت كل قبيلة رئيساً منها ثم يقع الهرج بين الرؤساء وهكذا حال الامم التي تعودت على ان يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها بدون ان يكون لها دخل في رؤية مصالحها لايمكن أن يطلب منها الدخول في أعمالها العامة والا فسدت فاذا أردنا ابلاغ الافغان مثلا الى درجة أمريكا فلا بد من قرون تبث فيها العلوم وتهذب العقول وتذلل الشهوات المخصوصية وتوسع الافكار الكلية حتى ينشأ في البلاد مايسمى بالرأي العمومي فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لامريكا

وياعجبا هل الشخص الذي توارث العوائد عن آبائه وأجداده ومرن عليها من مهده الى كهولته وتعود تفويض مصلحته الى ارادة غيره يصح ان يطلب منه في زمان واحد خلع جميع ذلك ويلقي اليه زمام مصلحته وهو في جميع عمره لم يفكر فيها ان هذا لخطأ ظاهر

ولكون أرباب الافكار منا يرومون ان تكون بلادنا وهي هي كبلاد أوربا وهي هي لاينجحون في مقاصدهم ويضرون أنفسهم بذهاب أتعابهم أدراج الرياح ويضرون البلاد بحمل المشروعات فيها على غير أساس صحيح فلا يمر زمن قريب الا وقد بطل المشروع ورجع الامر الى أسوأ مما كان فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم وكان لهم امكان أن يكونوا على أحسن منه فمن يريد خير البلاد فلا يسعى الا في اتقان التربية وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه ان كان طالباً حقاً بدون اتعاب فكر ولا اجهاد نفس وفي الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا العدد

وكتب في العدد ١٨٢

كلام في خطأ العقلاء

تولى أمر هذه البلاد (المصرية) أناس في أزمنة مختلفة تظاهر كل منهم بأنه يريد تقدمها ونقلها من حالة الهمجية (على ما يزعم) الى حالة التمدن التي عليها أبناء الامم المتمدنة وجعلوا الوسيلة الى ذلك ان تنقل عادات أولئك الامم المتمدنين وأفكارهم وأطوارهم الى هذه البلاد وظنوا أن تقليدنا لعاداتهم وأخذنا الآن بافكارهم اليومية وتشبهنا بهم في الاطوار كاف في أن نكون مثلهم وان استلامنا لتلك العادات وتلقينا لتلك الافكار أمر غير عسير

لم ينظروا في الاسباب والوسائل التي توصل بها أولئك الامم الى هذه الحال التي هم عليها حتى يقتدوا مثلها أو قريباً منها لترقي هذه البلاد بل ظنوا أن هذه الغاية من الممكن ان تكون بداية مع ان ما نرى عليه جيراننا من الممالك الغربية لم يصلوا اليه الا بعد معاناة أتعاب ومقاساة مشاق وسفك دماء شريفة وثل عروش ملك رفيعة وكانوا في كل ذلك يقربون من المقصود تارة ويبعدون عنه أخرى كما يرشدنا اليه تاريخهم حتى بدلت الحوادث الدهرية طبائع الاهالي وغيرت أخلاقهم ونبهت الضرورات أفكارهم وهذبت المخالطات الجهادية والتجارية عقولهم

ان بداية التقدم الأوربي في الحقيقة كان في نفوس الاهالي وأفراد الرعايا علمتهم الحروب الصليبية سير البر والبحر وخالطوا فيها الامم الشرقية أجيالا وطمحت أنظارهم لمغالبتهم فدققوا في سبب قوة الشرقيين (التي كانت لهم اذ ذاك) وبحثوا في أحوالهم فرأوا لهم عادات جميلة وفيا بينهم أفكار سامية ورأوا في دوائر أعمالهم اتساعاً وأيدي الصناعة والاكتساب مطلقة الحرية ولذلك كان الغنى والعز مستوكرا أقطارهم فاخذ أهالي أوربا عند ذلك في تقليدهم لكن لا في البهارج والزخارف بل في أسبابها والموصلات اليها وهي توسيع نطاق الصناعة والتجارة ونحوهما من وجوه الكسب فكان ذلك أساساً للعمل وقر في النفوس وثبت في العقول وبنوا عليه ماشاءوا ولو تأملنا تاريخ سير التقدم الاوربي لرأينا

أسباب التقدم يجمعها سبب واحد وهو احساس نفوس الاهالي بآلام صعبة الاحتمال من ظلم الاشراف (النبلاء) وغدر الملوك وضيق وجوه الاكتساب ونفرة دينية على المسلمين الذين استولوا على حرمهم المقدس وهذا الاحساس هو الذي دعا الانفس الكثيرة العدد الى الخروج من هذه الآلام فطلبوا لذلك أسبابا متنوعة أقواها التعاضد والتعاون على ترويج وسائل الكسب وافتتاح أبواب الرزق فكانت تعقد لذلك المحالفات والمعاهدات وتتألف له الجمعيات فكان جرثومة تقدمهم أمرا منبثا في غالب الافراد ومحرزا في أغلب العقول وهو نشاط الاهالي في اجتلاب الثروة وطلبهم لحرية العمل لينالوها ورفضهم لتلك التقيدات التي كانت تمنعهم من طلب حقوقهم الطبيعية ثم تدرجوا فيه ينتقلون من حال الى حال والاصل ثابت لا يتغير حتى عم التغير جميع الفوائد والمشارب والقوانين ولم يكن ذلك كله الا من حرص الاهالي أنفسهم على الخروج من الآلام التي كانوا يشعرون بها في كل لحظة من حياتهم و يتوارث هذا الشعور وذلك الحرص أبناؤهم من بعدهم

أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم الى حالة التمدن الحاضرة والاهالي على غير علم منها بانفسهم فاستلفتهم العقلاء اليها لكن لا بتحريك غيرتهم الى العمل اختيارا أو ألجأتهم اليه اضطرارا وتسهيل الطرق لهم حتى يسير من جميع عناصر البلاد وطبقاتها اشخاص مختلفون في الافكار والاحوال الى تلك البلاد المتمدنة و يشهدوا عاداتها وأحوالها ويهتم العقلاء منهم بالبحث عن أسباب السعادة وموجبات الشقاء اهتمام المضطر الذي يطلب خلاص نفسه من هلاك يتوقعه بل جلبوا اليهم كثيرا من أبناء تلك البلاد تظهر عليهم الرفاهية وترى عليهم آثار النعمة يتكلمون بما لا يفهم و يتفكرون فيما لا يعقل فشادوا بيننا أبنية وزينوها بما لم نكن نعهده من أنواع الزينة وجلبوا الينا من مصنوعاتهم ما راق منظره وطاب مخبره لكننا لم نشهد مصنعه ولم ندر منبعه ورأيناهم يتزينون بهذه اللطائف التي تذهب الحزن وتشرح الخواطر ويتنافسون فيها فاعجبتنا حالهم هذه وقال لنا العقلاء كونوا مثلهم والحقوا بهم في هذه السعادة ثم صاروا أئمة لنا في العمل فاخذنا نتشبه بهم لكن فيما رأيناه وهو الزينة والبهرجة

غير باحثين عن كون ذلك هو الذي يلحقنا بهم في الحقيقة أم لا ومن ذلك ترى أفكار الغالب ما دامت عند ما يجد فرصة الاقتدار موجهة الى تشييد الابنية وتجويد وضعها واتقان ترتيبها وتزيين بواطنها وظواهرها والتوسع في لوازم المآكل والمشارب وآلاتها وأوانيها والتفنن فيها وجلب ما هو أغلى ثمنا وأدخل في النظر وأجلب للأنس والتأنق في الملابس ومحاذاة الاوربيين فيها ومحاولة ان تكون على النمط الاعلا عندهم وعلى هذا النحو تفننا في أنواع المفروشات وتأنقنا في اقتنائها من أنواع مختلفة مما غلا ثمنه وارتفعت عن الطاقة قيمه وتنافسنا في ذلك كتنافس أسلافنا في افتتاح البلاد وتملك الحصون وبالجملة فقد سلكنا مسالك المتمدنين في ثمرات تمدنهم التي جعلوها من زوائدهم فاسرفنا في الانفاق وصار الناظر لملابسنا ومساكننا والذائق لمطاعمنا ومشاربنا يشهد بانا في ذلك بحمد الله متمدنون فقد اشتركنا معهم في ثمرات التمدن أي ما ينتهي اليه حال المتمدن من طلبه للتمتع باللذائذ وركونه لترويح النفس وتخفيف أتعابها

لكن من تأمل حقيقة الامر علم ان مثلنا في ذلك كمثل الدجاجة رأت ان الاوزة تبيض بيضا كبيرا فطلبت ان تبيض مثلها فأجهدت نفسها في ان يكون ذلك غير عارفة ان ذلك لا يكون الا باستعداد (أي بأن تكون أوزة) فحبست نفسها واستعملت قوتها الدافعة حتى انشق منها ما انشق وتمزق منها ما تمزق فان افراطنا في تقليد الاوربيين ومجاراتهم في عاداتهم التي نظنها تفوق عاداتنا البسيطة فعل في نفوس غالب الاغنياء منا فعلا غريبا صرف نظرهم الى اللذائذ واستكمال لوازم الترف والنعيم وأحدث في نفوسهم غفلة عما يحفظ ذلك عليهم بل يوجب ازدياده لديهم وهو الوقوف على الطريق المستقيم الموصل الى اكتساب المجد الحقيقي والشرف الذاتي الذي يتبعه الغنى والثروة والراحة المستتبعة للذة الحقيقية والنعيم الباقي في الحياة وبعدها ومن هذه الجهة (جهة الغفلة عن روح الثروة وحياتها وهو التمدن الحقيقي أعني الاحساس بوجوه اللذائذ والآلام والتشبث في طلب وجوه الكسب المتنوعة وطلب الامة على تلك الوجوه ومراعاة الحقوق والواجبات الطبيعية والشرعية) فارقوا الامم المتمدنة فصح ان يطلق عليهم أنهم

في غاية التمدن مع أنهم إما في بدايته وإما قبلها بكثير وحق لهم ذلك فانهم رأوا أبواب اللذات مفتحة قبل ان يجدوا عقلا يقدر لهم مايلزم منها وما لا يلزم

كل ذلك نشأ من جلب تلك الفوائد الترفية الى بلادنا وطلب التحلي بها بدون ان نحوز ما يوصلنا اليها من أنفسنا وليتنا قبل ان نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والترتيب المحكم ونزينها بأنواع النقوش والفرش والاثاثات أبقيناها على بساطتها وشيدنا في عقولنا الهمم الرفيعة والحمية التي لا نعتد اليها الايدي وأحكمنا طرق سيرنا في حفظ حقوقنا ورتبنا في مداركنا جميع الوسائل والممدات التي تحفظ علينا ماوجدنا وتجذب الينا ماافقدنا وزينا نفوسنا بالفضائل الانسانية والشرعية من رحمة بالضعفاء ورفق بالملهوفين وغيرة على البلاد وأنفة عن الصغار

لعمر الله لو قدمنا هذه الزينة الجوهرية على ذلك الرونق الصوري لكان العالم بأسره ينظر الينا نظر الراهب المخائف أو برمقنا بلحظ المعظم المبجل وكانت معيشتنا البسيطة أوقع في نفسه من معيشته الرفيعة وكان ذلك سهلا لو ان الزاعمين فينا حب الترقي والتقدم ساروا بنا من البدايات وحجبونا عن النهايات حتى لا نراها الا من أنفسنا فنطلبها لا لانها أعجبت النظر ولكن لانها بنت الفكر ونتيجته وكانوا يعلمونا محاذاة المتمدنين في أصول أعمالهم لا في زوائدها فكنا بذلك نصل الى ماوصلوا اليه في زمن أقل بكثير من الزمن الذي نالوا فيه ما نالوا لكن فات الوقت ونحن الآن فيه فعلينا بالعمل غير مقتصرين على مجرد الامل

وكتب في العدد ١٠٩٢ الصادر في ١٩ ابريل سنة ١٨٨١

كلام في خطأ العقلاء

لسنا ننكر ان بلادنا كانت في الازمان السابقة تحت تصرف أقوام خشنين لا يعلمون للخلقة غاية الا وجودهم الشريف وكانوا يعدون افراد الاهالي انعاما خلقت لهم يستعملونها كيفما يريدون (كما كان ذلك شأن سائر الامم غربية وشرقية) فارغموا أنف الطبيعة ومحوا أنوار الالهام الفطري الذي وضعه الله في نفوس عباده لفهم منافعهم ومضارهم حيث وقفوا سدا حصينا بين كل شخص ومنافعه

فاستأثروا بجميع ثمرات الاعمال فلا يعمل العامل وله أمل بأن يجني ثمرة عمله فانه عند ما تبدو الثمرة يسرع حاكمه الى قطفها وكانت حياته معقودة بغضب ذلك الحاكم ورضاه فان رضي عنه فهو في أمن عليها وان غضب عليه فهو ان عاش كمريض بلغ به المرض غايته ينتظر الموت في كل لحظة فيكون في حالة تسليم مطلق (خائف على حياته مستسلم لقضاء حاكمه) وبالجملة لم يكن لاحد من الاهالي حركة اختيارية ناشئة عن فكره الخاص به في تحصيل منفعة أو درء مضرة بل كانت أعماله تابعة لارادة سيده الحاكم وكان يعتقد أنه وما ملكت يداه حل للآمر عليه وليس لتصرف ذلك الآمر حد يجب ان ينتهي اليه وهذه حالة يصعد بها تاريخ هذه البلاد اجيالا كثيرة اذا استرسلنا في طلب مبدئها قد نصل اليه وقد لا نصل وبذلك الاسترقاق الظاهري والباطني فنيت الارادة ومات الاختيار وطفئ نور الفكر بالمرة

وكان من جملة التقييدات العنيفة التي وضعها أولئك المتسلطون الحجر على أهالي المدن وغيرها في الاعمال والاقوال الشخصية حتى كانوا من شدة التضييق يستعملون طريقة يقال لها الكبسة وهو ان يهجم رجال الضابطة على بعض الاماكن ليلا ليقبضوا على من يظن بهم الاجتماع على فسق كفحش بالنساء أو شرب للمسكرات وماشاكل هذا فان وجدوا شيأ من ذلك ساقوا من يجدونه الى حيث يستوفي عقابا أليما وكذلك وضعوا في الافواه لجاما من الرهبة فلا يكاد ينطق الناطق بكلمة في مطلب علمي أو تجادل في حال شخص الا ويرمي بكفر وزندقة أو طعن في حاكم وله عند ذلك الويل الذي لا مخلص منه كل ذلك سمعنا بعضه بالنقل ورأينا بعضه الآخر بالعيان

فتلك كانت حالة تعيسة يجب على عقلائنا ان يتحاموا كل وسيلة لتخليص رقاب العباد منها فرزق الله هذه البلاد باناس خالطوا الامم المتمدنة وطالعوا أحوالها ورأوا ما عليه أهلوها من اطلاق الارادة وحرية الاختيار فطلبوا لبلادنا ان تكون في أحوال أهاليها الشخصية على مثال سكان تلك البلاد المتمدنة لكنهم أول ما بدأوا به ان أباحوا (ما أقبحها من اباحة) لكل شخص ان يعمل فيما يخص

نفسه بإرادته و يتكلم فيما هو مقصور على ذاته بمقتضى فكره وشرطوا في ذلك شرطاً (ما أنفسه من شرط) وهو ان تكون تلك الاعمال والاقوال غير متعلقة بارتباطاته مع حاكمه فان كانت كذلك فدونها ضرب الرقاب أو سكن المحبوس أو الجلاء عن الاوطان وسموا تلك الاباحة حرية ونادوا بها على الالسنة الظالمة فكان حاصل تلك الحرية ان لاجناح على من ارتكب أي جريمة وتطبع باي خلق حسنا كان أو سيئا وذهب الى أي مذهب صحيحا كان أو فاسداً وانما عليه ان يكون تحت أمر الحاكم ليس له حق في أن يمنع عنه مطلوباً أو يستقضي منه مسلوباً أيا كان فلم يجعلوا للسلطة حداً معيناً وهو الذي نسميه بالقانون الذي يعرفه كل أحد فيقف عنده بل أبقوها على ما كانت عليه وجعلوا تلك الحرية غطاء على هذا الاستبداد فهم في الحقيقة لم يقلدوا الامم المتمدنة في اطلاق الارادة من جهة الارتباطات العمومية الثابتة فهذا خطأ من وجه ان كان لهم مقصد إصلاح وظلم ان كانوا متعمدين هذا التقييد ثم انهم قلدوها في الاحوال الجزئية الشخصية مع علمهم أن البلاد غير معتادة على مثل هذه الحرية فيها فلذلك اندفعت الناس الى انتهاب الشهوات وهتكوا حرمة الوقار وتهالكوا على شرب المسكرات في بلادنا الحارة الى الحد الذي لا يبلغه الاوربيون في بلادهم الباردة وكثرت لذلك الحانات ومخازن الشراب المهلك للعقول والابدان ثم تولعوا بما يتبع السكر من اللهو واللعب وتنافسوا في الحظوة عند النساء الباغيات واتسع الامر في ذلك حتى صارت المداعبة والملاعبة بين النساء والرجال في الطرق والشوارع وتعدى ذلك المرض المعدي الى الحرائر فذهب الكثير منهن الى حيث يتعين وافتضحت بذلك بيوت شريفة وكلما طلبت لذلك منعاً أو رمت له دفعاً قال المولع هذه حرية فضاع شأن الآداب وانحطت قيمة الشرف والوقار حيث أصبح أبناء الاغنياء وذوي المقامات يتسابقون الى التهور في هذه الاحوال الرديئة ويدعون اليها من دونهم ومن فوقهم (الا قليلا) و يصرفون فيها مالا يقدر من النقود (وسأجعل لذلك موضوعاً خاصاً) وكاد فساد الاخلاق يسري الى كثير من طبقات الاهالي — هذه نتائج حرية ذلك العمل

وأما نتائج حرية الفكر (التي يزعمونها) فكانت خاصة بالاعتقادات والمشارب الدينية فأخذ كثير من الناس يجهرون بين العامة بألفاظ تناقض دينه الذي ولد فيه فان قيل له خفض من صوتك واجمل في قولك فما كل الناس يرضاه قال اننا في زمان الحرية على ان أفكاره التي يذهب اليها في مخالفة دينه ليست بأفكار مرتبة مبنية على مبادي ربما يقال انه اتخذها مشربا بل ألفاظ حفظها من معاشريه لو سئل عن معناها أو طلب منه أي وهم ساقه اليها لعجز عن التعبير والتجأ الى التهوس ورمى من يخاطبه بالجهل والخشونة حيث لم يوافقه على مشربه الفاسد ثم يتخذ هذه المخزعبلات الاعتقادية التي يظنها نوراً وتبصراً ذريعة لاستباحة القبائح واستحلال المحظورات ولقد رأيت شخصاً ينكر ألوهية الخالق والعياذ بالله ثم يسأل عن حكمة المعراج ومنهم من ينكر النبوات ويعتقد بالشياطين وما أشبه ذلك فهؤلاء من الجهل بمكان لا يعلوهم فيه حيوان فضلا عن انسان

فهذه الحرية البتراء التي رمانا بها عقلاؤنا لم تدع لها أثرا يحمد وان كان الأوربايون يحرصون عليها فان استعداد بلادنا لم يكن ملائما لمثل هذا الاطلاق الذي هو في الحقيقة عين الرق والاستعباد فان الجاهل الذي لم يتعود على تصريف ارادته واعمال اختياره اذا أطلق له العمل وقع في أشد من الرق وأضر من العبودية نعم انه عتق من أسر الضابطة وغل الجزاء ولكن شهواته الخبيثة تبيعه بأبخس الأثمان الى الاسراف والبطالة والكسل وجميع أنواع الشرور وتودعه سجن الفقر ونقله بطوق الذل والعار وياليته بقي تحت سيادة القانون يسوسه حتى في أعماله الشخصية فالكبسة على ما كان فيها من الخطر على الانفس والاموال وشناعة الصورة لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل الى زمن تتقدم فيه التربية فيكون لكل شخص زاجر من نفسه فترتفع الكبسة بذاتها ويذهب الناس أحرارا بطبعهم وما كان ذلك بعسير ولا محتاج الى زمن طويل وما ضرنا الا التقليد على غير تبصر بحال البلاد واستعدادها

فتلك الحرية التي سموها اطلاق الفكر قد عتقت صاحبها من قيد العقل وأسلمته الى الجهل الأعمى فهو يتصرف به كيف ما يقتضي من الضرات ولو أنه

بقي تحت سيادة العقل يسومه المهذبون ويقوده المتبصرون حتى يعلم من أين تؤتى الافكار وبأي الوسائل يوفى العقل حظوظه الحقيقية لكان ذلك خيرا وأبقى ولم يكن يحتاج الا لتخفيف يسير في شناعات المتعصبين وتعيين دائرة منتظمة يردد الكلام بين محيطها الى زمن معين حتى تستقيم العقول فتضرب لنفسها حدًّا تقف عنده ولكننا طلبنا ان نكون على مثال الاوربيين في عوائدهم حتى المضرة بأخلاقنا وأعمالنا وأفكارنا

ورأيت العقلاء منا في الزمن السابق اقتدوا بالبلاد المتمدنة في الازمان السابقة عند ارادتهم تأييد الاستقلال حقيقة حيث بدأوا بالمجالس البلدية فكان يمكنهم ان يضعوا لأهل البلاد قانونًا بسيطًا ينطبق على عوائدهم وأحوالهم ويقرب فهمه من ادراكاتهم ثم يفوض الى أهل كل بلد ان تنتخب منها عددا معينًا ليقوم بالفصل بينهم على مقتضى هذا القانون ثم يصنعوا مثل ذلك في المدن على حسبها ويذهب اشخاص من العارفين الى القرى والمدن ليفهموا أولئك مواد القانون السهل البسيط ويدربوهم على كيفية العمل به ثم لايزالوا على المراقبة ازمانا فلا تمضي مدة حتى يكون جميع الاهالي عالمين بما يجب عليهم ولهم فتنمو فيهم القوة وتحيا فيهم روح الاختيار كما كانت عليه الجمعيات ببلاد ايطاليا وفرنسا وغيرها في مبدأ تمدنها ثم يتدرجوا في القوانين الى أرقى مما وضعوا أولا مع تفهيمه وتعليمه لجمهور الاهالي ليعلموه فيقفوا عند حده

وكان في ذلك غنية عن القوانين الضخمة التي لا يفهمها الا الراسخون في العلم وهي محفوظة بين دفات الكتب وصدور بعض من النبهاء لكن الاهالي أنفسهم الذين قد وضعت هذه القوانين لهم غير عالمين بها فكيف يطلب منهم ان يعملوا بمقتضاها ان هذا لشيء عجاب غير ان العقلاء منا يقولون لابد ان نكون مماثلين لأوربا في القوانين والعادات رغمًا عن الحق الذي يقضي علينا بأن نكون خاضعين لاحكام بقعتنا وما تقتضيه طبيعة موقعنا التي نشأنا فيه ولن يكون ذلك أبدا

وانا نخشى لو تمادينا في هذا التقليد الاعمى واستمر بنا الأخذ بالنهايات الزائدة قبل البدايات الضرورية الواجبة ان تموت فينا أخلاقنا وعاداتنا وان

يكون انتقالنا عنها (لو انتقلنا) على وجه تقليدي أيضا فلا يفيد لكن الوقت لم يفت بعد فعلى من يريد بنا خيرا ان يذهب بنا طريقا قويما ولا أراه الا نشر القوانين (وان كانت طويلة صعبة المنال في وقتنا هذا وما لا يدرك كله لا يترك كله) انما لا يكتفي بنشرها على لسان الجرائد فان قارئيها قليل ولا بارسال المنشورات الى عمد البلاد فان كثيرا منهم قلما يفهم اذا قرأ ولكن لا بد من تشكيل جمعيات في القرى والمدن لتفام القوانين واللوائح والمنشورات والا ضاعت الحقوق وكثرت المشاكل وصعب كبح صغار المأمورين عن الاجراآت المضرة بالحكومة والاهالي معا ثم وضع حدود قويمة للاعمال الشخصية والاخلاق والتصرفات فان اصلاح الاخلاق والافكار والاعمال من أهم واجبات البلاد وبدونه لا يمكن اصلاح شيء من أمورها وليس يجوز أن يجعل في درجة أقل من درجة قوانين حفظ الضبط والربط

ومركز النظر في جميع ذلك نبهاء البلاد وذوو الشأن فيها فعليهم ان كانوا صادقين في الوطنية ان يبذلوا الجهد في طلب ذلك والقيام بما يلزم والا فانهم مقلدون فقط والله أعلم

وكتب في العدد ١٤٠٠ الصادر في ١٦ جمادى الثانية سنة ١٢٩٩ — ٤ مايو سنة ١٨٨٢

التمرن والاعتياد

حصول صورة الشيء في النفس علم وميلها الى طلبه أو تركه ارادة والتصميم على أحد الامرين عزم وليس بعده الا الطلب بالفعل أو الترك والترك لا يحمل النفس كبير مشقة سوى الوقوف على كون المتروك من الامور التي تكلف بها النفس تكليفا ضروريا أو كماليا كان من الامور المباحة أو المحظورة فاذا وقفت على حقيقته انصرفت عنه انصرافا

أما الطلب فهو أحد الامرين التي يحمل النفس عنائين أحدهما يتعلق بها من جهة قوتها الفكرية والثاني من جهة القوة العملية المودعة في أعضاء البدن والاول مقدمة الثاني وسابق عليه ونسبته اليه لدى أرباب الحل والعقد ورجال النقد نسبة الامرين المتضايفين لا يوجد أحدهما بدون الآخر